

وزرافى الرماح والبحارة . فنعرف خصائصهم وأوصافهم وجنسياتهم وطبائعهم فى صياغة ذكية تحفل بالتشبيهات والتعليقات الطريفة التى تم عن مرخ ملفل ودعابته وفكاهته .

حقا إن ملفل كثيرا ما يوقف سياق روايته ليحشو بناءها بمعلومات عن تاريخ صيد الحيتان أو نظم صيدها أو عن أجناس الحيتان . وكلها معلومات هامة وجديدة ومفيدة ولكنها تصيب شكل الرواية بالأورام الزائدة . غير أن هذا كان حال روايات القرن التاسع عشر الغنية بالتفاصيل . وهذا هو الفرق بين رواية « موى ديك » ورواية « العجوز والبحر » لأرنست هيمنجواى المكثفة والمركزة . وهذا ما يجعل رواية ملفل أشبه بدائرة معارف عن البحر والحيتان وموسوعة علمية بحرية . فإن ملفل يجمع فى هذه الرواية بين جهود الباحث النظرية وخبرات البحار والصيد العملية . وهو يعيب على معظم من كتبوا عن الحوت أنهم لم يروا حوتاً حياً قط . ولم يكتب ملفل بالبحث فى أقيية المكتبات عن الكتب العلمية وعلم التاريخ الطبيعى والكتب الدينية المقدسة . بل تعداها إلى دراسة صورة الحوت فى دواوين الشعراء العظام الأوائل ليكتشف عن ضخامة حوت العنبر كملك للحيتان ، ثم يعرض لسته أنواع من الحيتان على رأسها حوت العنبر ، فنعرف أن حوت العنبر هو أضخم الكائنات الحية فى الكرة الأرضية وأشدها إخافة وأجلها منظراً وأكثرها قيمة لما يحتويه من زيت العنبر . وهو يقسم الحيتان حسب أحجامها وأشكالها وأثمانها وألوانها ، ويطلق عليها الأسماء إذا لم تكن لها أسماء أو يغير من أسمائها حسب خبرته الواقعية بصفات ومميزات . ويشرح حجم الحوت ويصف أجزاء وطريقة صيده وحمله مربوطاً إلى جانب السفينة ، وتصفية زيتة وشحومه وأهمية زيت العنبر وخطورة ذبه ، وغيرها من المعلومات المتعلقة بعالم البحر والحيتان . ثم يتحول إلى التعريف بضباط مهنة التحويت ، وفتات العاملين فوق سفن صيد الحيتان من بحارة ونجارين وحدادين وأوضاعهم الاجتماعية وعلاقاتهم . وكلها معلومات ترد بشكل تعليمى مباشر وتعتمد على السرد التقريرى والأسلوب العلمى وليس الفنى . ولعل أهم تلك المعلومات تلك التى توضح سلطة القبطان وسطوته وأوامره التى تتطلب الطاعة التامة من الجميع حتى فى سبابه المقذع لهم الذى يحيله إلى ديكتاتور جبار ، بالرغم من صلوات الأسرة الواحدة بين العاملين فوق السفينة .

عندما تغادر السفينة الميناء ، يصعد الرجال إلى قمم الصواري يرقبون ظهور الحيتان ويتبادلون مواقعهم . ولا تخلو الصواري منهم حتى تعود السفينة من رحلتها الطويلة التى تستغرق ثلاث أو أربع سنوات أو حتى خمس حتى تدخل الميناء مرة أخرى . ويؤرخ ملفل لمهنة راكبي